الأساليب الفنية في القصة القرآنية

بقلم : دكتور محمد احمد خلف الله

وتبدأ بدراسة أسلوب القرآن الكريم في رسم الصورة أو عرض الحادثة . ونلحظ ان القرآن لم يسلك طريقة واحدة وانما نوع في قصصه ونلحظ من تنويعه هذه الظاهرات

١ ـ كان القرآن الكريم يعتمد أحيانا على الألفاظ الفخمة الضخمة ذات الرنين القوي التي تؤثر بنسبها ومعناها ، كما تؤثر بموسيقاها . وكان يعمد احيانا الى الجمل المسجوعة القصيرة العبارات ، ليزيد من قوة الرنين ، فتملأ موسيقى الألفاظ الأذن نغما والقلب خشية ورهبة أو غبطة وسرورا . وذلك من امثال هذه القصص « **كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه انى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر . وحملناه على ذات الواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر . انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كانهم اعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** » .

* * *

٢ ـ وكان يعتمد أحيانا أخرى على تتابع الأحداث تتابعا سريعا لتؤثر في النفس وتهز الفؤاد . وذلك من أمثال قوله تعالى : «**فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين**» ولعل هذا هو الذي وعاه أيضا الى ان يجمع الوانا من القصص في سورة واحدة . وذلك من أمثال قصص الأعراف وهود والشعراء والقمر .

* * *

٣ ـ وكان احيانا أخرى ـ وهو الغالب ـ يعتمد على الألفاظ السهلة اللينة التي

نصدر عنه كما نصدر الالفاظ في الاحاديث العادية . بعض وكأنه يخاطب القوم بلغتهم العادية ويتحدث اليهم أحاديثهم المألوفة . ويلاحظ في مثل هذا اللون ان حركة الأسلوب كانت تتمشى مع حركة العاطفة . ولعل خير ماتمثل هذه الخاصية هذا الجزء من قصص موسى . **ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لانسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب اني لما انزلت الي من خير فقير فجاءته احداهما تمشي على استحياء ، قالت ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ماسقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين . قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين . قال اني اريد أن انكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان اتممت عشرا فمن عندك وما اريد ان أشق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين . قال ذلك بيني وبينك ايما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل** » .

فنحن نلحظ في الجزء الأول وهو الخاص بورود موسى ماء مدين استعمال الفعلين المضارعين يسقون وتذودان للدلالة على الحركة ، وللتصوير الأحداث حتى لكأنها حاضرة مشاهدة ، وليس ذلك الا لانهما الفعلان الدالان في هذا الجزء من الآية على ما سيقع ، وكأنما يشيران الى أن هذه الأحداث هي التي تهم موسى ، ولقد كانت هي التي استثارته فعلا ، فالناس يسقون وهاتان تذودان ، ولذا تقدم الى الفتاتين قائلا ما خطبكما ؟ وأظنك تلحظ معي مافي هذا اللفظ من عنف وحزالة ، وما فيه من دلالة على تلك الخواطر التي ألمت بنفس موسى ، واني لأحس مسه الغضب على أولئك الذين يسقون الفتاتين الى السقيا .

وتنطق الفتاتان بهذه الجملة التي تدل على مالى الأنثى من ضعف وحياء بدفعانها الى التخلف في مثل هذه المواقف التي يكثر فيها التزاحم وتختلط فيها النساء والرجال « **لانسقي حتى يصدر الرعاء** » وبهذه الجملة التي تستثير الرحمة وتستمطر الحنان . « وأبونا شيخ » انها لألفاظ سهلة ليست تتدافع رقتها الآذان والقلوب ، وانها الجمل التي تنطق بها الأنثى ، والأنثى ليس غير مافي ذلك شك أو جدال .

ويأتي جزء آخر دال على الحركات المتقطعة السريعة التي يأتي بها الانسان ليصل الى مأوراها « **فسقى لهما ثم تولى الى الظل** » ونلحظ موسى هنا وفي هذا الظل متراخيا منهوك القوى مستسلما صارعا « **رب اني لما انزلت الي من خير فقير** » .

وتمشي الجملة مع هذه الصراعة ويظل الشعور الدفين من وراء الستار ومن التصريح بالعفو والحاجة الى الخير أمام الغنى الكبير .

على أن المقام بموسى لن يطول فقد جاءته احداهما تمشي على استحياء ألا ما أرق هذه الجملة وما أخف وقعها على الاسماع والقلوب . وما أقدرها على تصوير الحركة والانفعال ، تمشي وتمشي على استحياء ثم ما أجمله من تعبير دال على خير ما في الفتيات من جمال هو جمال الخفر والحياء . جاءته فقالت ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ماسقيت لنا . وهل يتطرق موسى حتى يجيب ؟ انه محمل لانه في حاجة الى هذا الأجر ، وهو الغريب الفقير ، وان فلتطرق الاجابة وليطرق معها الطريق وليلق موسى الشيخ وليقص عليه القصص ، وهل يعمل غير هذا الغريب الطريد ؟

ويطل الشيخ الى ما يقص الفتى المطلوب للثار . فيقف منه موقف الشهم الكريم ، ويلقي اليه تلك العبارة التي ترد عليه الهدوء والطمأنينة وتشعره بأنه في كنف شجاع كريم « **لاتخف نجوت من القوم الظالمين** » لاتخف هذه ينطق بها الرجل

باطمئنان النفس وراحة القلب وهدوء الخاطر ، ومن القوم الظالمين تلك التي تدفع عنه العلق النفسي وتأنيب الضمير .

وتبدأ مرحلة أخرى تصور الاعجاب بالفتى والاحتيال على لقاء الحبيب ، اذ تتقدم احداهما الى أبيها وتطلب اليه ان يستأجره ، ومن يستأجر ؟ ان خير من يستأجر القوي الأمين ، وكان الشيخ قد فطن الى المراد فأسرع الى تحقيق رغبة الفتاة ، وأقدم على الفتى بهذا القول المؤكد الذي يقطع على المتردد كل سبيل « **اني اريد أنكحك احدى ابنتي هاتين** .. » ويستجيب الفتى وهو الشريد المقتفى ، وهو القابل المستجير ويجيب تلك الحيلة التي تشعرنا باستسلام ، وكأنه الطفل الصغير أمام الشيخ الكبير « **ستجدني ان شاء الله من الصالحين** » ويتم الاتفاق ويشهد الله لابنه على ما يقولان وكيل .

وكان القرآن يعتمد في أحيان كثيرة على تصوير الحركات لتدل بدورها على الانفعالات قوة وضعفا وعنفا وليانا، وذلك من أمثال قوله تعالى « **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب** » وقوله « **فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم** » . وقوله « **وانه كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا** » . وقوله « **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها في ضلال مبين ، فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم** » .

وقوله « **وامرأته قائمة فضحكت** »

كما كان يستعين أحيانا بالعبارات التصويرية والصيغ الدالة على الانفعال نحو قوله تعالى « **قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا** » وقوله « **فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** » وقوله « **يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا** » . وقوله « **فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى واني سميتها مريم واني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** » . وقوله « **واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** » .

وعلى كل فيجب ألا ننسى أن أسلوب القرآن ـ في الغالب ـ هو أسلوب التخاطب فقد كان القرآن يلقى على القوم القاء ، ومن هنا وضحت في قصصه أساليب الحديث والمشافهة خاصة في مبدأ القصة نحو « الم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه ، واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها الخ .

* * *

اسلوب الحوار :

ليس من الضروري أن يوجد الحوار في كل قصة ، فقد تخلو منه القصة وتبقى

على أنها صورة لشخص أو رسم لحادثة ، وهذا هو الغالب في القصص القصيرة ، ثم هذا هو الامر الذي مضى عليه القرآن في كثير من قصصه الذي يقصد فيه التحويف بل مضى القرآن الى شيء آخر في دعايته للعقائد او صدمها فادار الحوار على آلة الخواطر النفسية التي تلم بالشخص والتي تنقله من طور الى طور ليتخلص من عقيدة ويدخل في أخرى وهذا هو الامر الواضح كل الوضوح في قصة ابراهيم من سورة الانعام « **واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ، اني أراك وقومك في ضلال مبين ، وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم اني بريء مما تشركون، اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين** » .

لكنا ـ مع كل هذا ـ نجد كثيرا من القصص القرآني كان الحوار فيه عنصرا مهما ـ ان لم يكن العنصر البارز ـ وهو موجود على كل حال في كل قصة تعددت شخصياتها وذلك من مثل قصة يوسف وقصة موسى في طه ، وقصة آدم في الأعراف ثم في مجموعات قصص سورتي هود والشعراء وفي قصة ابراهيم في سورة مريم وفي غيرها من القصص الذي يراد به التشبيت أو شرح مبادىء الدعوة الاسلامية ، ويستطيع أن نضرب مثلا لذلك هذا الجزء من قصة موسى في سورة طه « **اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري ، اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولا ليّنا لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا انا نخاف أن يفرط علينا او ان يطغى ، قال لاتخافا انني معكما اسمع وأرى ، فأتياه فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ، انا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى ، قال فمن ربكما ياموسى ، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربي في كتاب لايضل ولا ينسى ، الذي جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى، كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لآيات لأولي النهى، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى، فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولا انت مكانا سوى ، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ، فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ، قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ، فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى** . . الخ . . .

* * *

وموضوعات الحوار في القصص القرآني هي الموضوعات الدينية في الغالب ، وهي الموضوعات التي بسببها قام بين النبي عليه السلام وقومه جدل عنيف ، وذلك من أمثال الوحدانية والبعث وكون الرسل من البشر وليسوا من الملائكة واحداث المعجزات الخارقة للدلالة على النبوة وغيرها ، وقد سبق أن صورنا كثيرا من هذه الموضوعات في الفصول الاولى عند حديثنا عن القيم الدينية والاجتماعية فلا داعي لذكرها هنا .

وطريقة القرآن في تصوير الحوار تقوم على أساس الرواية ، فيحكي القرآن أقوال الاشخاص ويصدرها بقوله « قال أو قالا أو قالوا » .

هذا التصدير يلفت ذهنا الى أمر خاص بالحوار في القصص القرآني هو أنه ليس من اللازم أن يقوم الحوار بين اثنين ، فقد يكون بين كثرة . وكل هذه الامور ملحوظة في القصص القرآني ، فيكون الحوار بين اثنين كالحوار بين ابليس وآدم ، وبين ابراهيم وأبيه وبين موسى وفرعون . ويكون بين واحد من طرف واثنين من طرف آخر ، كما هو الواضح في قصة موسى السابقة . فقد كان موسى وهارون الركن الثاني من أطراف المحاورة . وقد يكون بين واحد من طرف وجماعة من طرف آخر كالحوار الواقع في أكثر القصص القرآني بين الرسل وأقوامهم من مثل قوله تعالى

« **ولقد ارسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين الا تعبدوا الا الله اني أخاف عليكم عذاب يوم اليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم ما علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان اجري الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكني اراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم افلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا أقول اني ملك ولا أقول للذين تزدري اعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في انفسهم اني اذا لمن الظالمين . قالوا يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما انتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحي ان اردت أن انصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون** » .

والقضايا التي يعتمد عليها القرآن في حواره ترجع في الغالب الى المسلمات الدينية أو المسلمات بحسب العرف والبيئة ، ومن هنا تقوم على أساس اللذة والألم او المنفعة والمضرة وانهما بيد الاله المتفضل بهما على عباده . كل وما يستحق .

* * *

والاسلوب الادبي في الحوار يخضع خضوعا يكاد يكون تاما لسمات الاسلوب القرآني كله ولذا نلحظ فيه هذه السمات :

١ ـ ان لغة الاسلوب تختلف باختلاف الموضوعات والطور الذي نزلت فيه ، ومعنى ذلك أنه اسلوب فني يجري في كل قصة من القصص على وتيرة واحدة ، ومعنى ذلك أيضا أن القرآن كان لا يساير نفسية المتحاورين بقدر ما يساير نفسية محمد عليه السلام ونفسية معاصريه ، ومن هنا خضع اسلوب القصص لتلك المميزات العامة المعروفة عن اسلوب القرآن في عهدين المكي والمدني .

٢ ـ يلاحظ انه في القصص الذي نزل أولا ، كان يعتمد على الرنين الصوتي للالفاظ ، يعاونه في ذلك الفقرات القصيرة المسجوعة ، وذلك لان عاطفة النبي عليه السلام كانت في ذلك الطور قوية حياشة مندفعة ، ومن هنا كانت الانتقالات الفجائية السريعة التي تظهر في القصة الواحدة ، والتي تظهر في مجموعة القصص الواردة في سورة واحدة . ولذا كانت القصص قصيرة جدا في هذه الفترة ، ويمثل هذه السمات قصص سورة القمر .

٣ ـ يلاحظ في القصص العقائد العديدة ، ويحاول أن يهدم القديمة ، ان السخرية بالأفكار والعقائد تدخل فيه كعنصر فني ، وهي سخرية مرة نافذة ، اذ تحاول أن تضع الحقائق الواضحة المتميزة امام كل ذي عينين ليستعين من تشبيته .

وليحس احساسا قويا بما هو فيه من ضلال ، وذلك الأمر يمثل قصص ابراهيم عن عبادة الأوثان ، خاصة في سورة مريم والشعراء .

كما يلاحظ في هذا الجزء شيئا من هدوء العاطفة عند الرسول ، ونفس ما تحمل الالفاظ من حنان حتى ليشعر القارىء او السامع انه في كنف شخص عظيم يظلله برعايته ويحاول أن يصرف عنه القسوة والعداب ، ويمثل هذا اللون قصص هود وصالح وشعيب من سورة الأعراف كما يمثله قصة ابراهيم في مريم .

٤ ـ في القصص الذي يأتي للتنفيس والاغاضة تكون العواطف جياشة قوية ، وان تكن أميل الى الاستسلام ، وذلك هو الأمر الذي تدفع اليه العلاقة القائمة بين الرسل والأقوام . ومن هنا تأتي الألفاظ هينة مسترسلة لتجري مع طبيعة العاطفة وما فيها من يأس واستسلام . ومن هنا نلحظ من حين لآخر وجود العنصر القصي الذي أسميناه فيما يأتي بالمأساة ، وهي عبارات اصبحت تقليدية في بعض الأدعية الدينية .

وهنا قد نلاحظ اختلافا في العاطفة بين المتحاورين ، فيبقى المستكبرون على ما عرف عنهم من قسوة وجبروت . ويبقى الانبياء بين بين وان غلبت المسالمة ، وذلك لما يكمن في قلوبهم من محبة الأهل والعشيرة ، ولما يبغون من انتصار الدين ، ولما يرجونه من اسعاد الأهل والعشيرة ، أو اسعاد من تحمله الأرض او تظله السماء .

وعلى الجملة فالأسلوب القرآني في القصص يساير نفسية محمد عليه السلام ويستظهر هذه المسايرة في حديثنا المقبل عن القصص القرآني ونفسية الرسول عليه السلام ، وان كنا نحمل الحكم الأدبي في هذه الجملة ، وهو ان أسلوب القرآن في التعبير عن افكار الانبياء والمرسلين أو الأقوام لا يشاكل الواقع وانما يمشي على وتيره واحدة في القصة الواحدة ، وهو الامر الذي يحاول أن يبقي القصص على خلافه في هذه الايام ، اذ نرى الحوار يمثل نفسية المتحاورين وأسلوبهما في الحديث والمخاطبة ، وعقليتهما في التفكير وفي الحركات الذهنية ، كما قد يمثل الحرف والصناعات .

ومرات قليلة تلك التي نجد الحوار فيها يمثل شخصية المتحاورين وما فيها من قوة وجبروت وما لها من عظمة وكبرياء وتلك هي المحاورات التي يقصها القرآن الكريم على لسان فرعون أو على لسان ابليس حين يحاور كل واحد منهما شخصية الرسول الذي قام الى جانبه في القصة كشخصيات موسى وآدم عليهما السلام ، وهي مرات لا تجعلنا نطمئن اليها أكثر من اطمئناننا الى الامر الآخر وهو ان الحوار انما يمثل أكثر من كل شيء الدعوة الاسلامية ونفسية محمد عليه الصلاة والسلام .